كلمة البروفسور سليم دكّاش اليسوعيّ، رئيس جامعة القدّيس يوسف في بيروت، في طاولة مستديرة حَول كتاب "الحوار الإسلاميّ المسيحيّ في لبنان... رؤية الموحّدين الدروز"، في قاعة ثانويّة العرفان – السمقانيّة، في ٤ نيسان (إبريل) ٢٠١٧، الساعة الخامسة من بعد الظهر.

ما جئت لأناقش أو لأجادل فضيلة الشيخ الدكتور سامي أبي المنى في كتابه، بل جئت قبل أيّ أمر آخر لأهنّئه على هذا الإصدار الذي يُعتَبَر حدثًا بعينه، بعد أن تمّ إنجاز الأطروحة في "الحوار الإسلاميّ المسيحيّ في لبنان، رؤية الموحّدين الدروز".

لا أتوّقف عند جودة الطباعة وأناقة الشكل وسهولة العبارة بالإضافة إلى عمقها، بل إنّي أسلّط الضوء على أنّ الولوج إلى هذا الموضوع تحت مظلّة الدكتوراه كان يتطلّب شجاعة أخلاقيّة وكذلك شجاعة أدبيّة عقليّة لأنّ التطرّق إلى أمور تخصّ أصحاب "مسلك التوحيد" هو أمرٌ لا يبرع فيه سوى العارفين القلائل ونظرة سريعة إلى فهرس محتويات الكتاب تدلّ بوضوح أنّ صاحب الكتاب هو من العارفين. وإن أضفنا إلى باب المعرفة أبوابًا أخرى نجدها واضحة في الكتاب مثل لياقة التعبير ودقّة العبارة ودماثة الإنتقاد، لقلنا إنّ المؤلّف الشيخ سامي يجيد أدب المحاورة وقواعدها قبل الدخول في عرض موضوعه في رؤية الموحّدين الدروز للحوار الإسلاميّ المسيحيّ اللبنانيّ.

لا نستطيع إلاّ التأكيد على القيمة المضافة التي يشكّلها هذا المؤلّف في أدبيّات الحوار الإسلاميّ المسيحيّ في لبنان. في هذا الإطار أتوقّف عند بعض النقاط الهامّة في صياغة هذا الكتاب.

أوّلاً : الشيخ سامي أبي المنى لا يكتب أطروحة أو كتابًا بل إنّه يضع قواعد فكر في مجال العلاقات الإسلاميّة المسيحيّة. إنّه في هذا المجال يصيغ مسوّغات اختيار الموضوع ودوافعه حيث إنّ دراسة واقع المجتمع اللبنانيّ التعدّدي – وهو يشكّل نموذجًا متقدّمًا للتنوّع الثقافيّ – هي فرض عين على الباحث العلميّ المتجرّد الموضوعيّ، وخصوصًا عندما يتمّ ربط هذه الدراسة بتحليل لواقع المجتمع التوحيديّ "الدرزيّ" في علاقته الطبيعيّة والمجتمعيّة المتعدّدة. أمّا المسوّغ الثاني والأهمّ الذي دفع باحثنا لخوض غمار هذا الموضوع – وهو مسوّغ حافز كما يسمّيه الشيخ سامي – فيكمن في الرغبة بإزالة الغموض وتبديل السلبيّة تجاه الموحّدين لجهة التشويه والإساءة اللذين طالا معتقدهم ومذهبهم وفي تأكيد اهتمامهم بالسلام والحوار على الرغم من تاريخهم المليء بالحروب.

وهناك مسوّغ ثالث يذكره الباحث وهو يختصّ بالسعي لتبيان أسس الدولة الحاضنة أي الدولة التي تحتضن الواقع المجتمعيّ اللبنانيّ المتنوّع بتنوّع عائلاته الروحيّة آخذًا بعين الاعتبار التناقضات الداخليّة المعروفة كعلاقة مكوّنات الداخل بالخارج القريب والبعيد وتمييع مفهوم الدولة والوطن والخلط بين الولاءين الطائفيّ والوطنيّ والالتزام الدينيّ والالتزام الإجتماعيّ والإنسانيّ والتوازن بين القوانين الوضعيّة والدستور وبين قِيَم المبادئ والأخلاق ذات البعد الدينيّ. أضف إلى ذلك

تلك المفاهيم الخاطئة والسائدة بين الديانتين الإسلاميّة والمسيحيّة عمومًا التي تسبّب ما تسبّب من صراعات وأذى وضرب العيش المشترك. كلّ ذلك يدعو إلى الحوار وإلى إرساء قواعد الحوار على أسس متينة. ويستطاع القول من دون تردّد أنّ الباحث، وإن سلّط الضوء على هذه المسوّغات، فإنّه في الوقت عينه نجح في الإجابة عليها بشكل مصيب في مختلف فصول هذا الكتاب حيث بدأ إنطلاقًا من منظور شامل في ما يتعلّق بالحوار الإسلاميّ المسيحيّ العام، إلى الحوار اللبنانيّ، وإلى أسس هذا الحوار ومنطلقاته حتّى المعوّقات والتشوّهات ثمّ في ما يتعلّق في منظور خاصّ بمنطلقات الحوار عند الموحّدين الدروز ودورهم العمليّ فيه وإسهامهم في تفعيله وتطويره نحو الأحسن.

ثانيًا : صحيح أنّ الكتاب يُفرِد بابًا في الحوار الإسلامي في رؤاه المتنوّعة المشتركة فيعرض ويحلّل النظرات المتبادلة بشكل عام ومفصّل ويستفيض في الحديث عن الحوار الإسلاميّ المسيحيّ اللبنانيّ وعن مبادئ العيش المشترك وتحدّياته تاريخيًّا وإجتماعيًّا ووطنيًّا، وربّما وجد البعض أنّ هناك إطالة في الموضوع ويتساءل لماذا كلّ هذا ؟ فالشيخ الباحث والمفكّر أراد أن يموضع الإسهام الدرزيّ في الحوار الإسلاميّ المسيحيّ في الإطار العام لهذا الحوار وكجزء لا يتجزّأ منه. وما تجدر الإشارة إليه هو تلك الثقافة العامّة التي يتحلّى بها صاحب الأطروحة في معرفته لمجريات الحوار وتاريخه أكان ذلك على المستوى العام الدوليّ أم المستوى الخاص اللبنانيّ. وعندما يقول الشيخ الدكتور إنّ الحوار هو ثقافة وطنيّة فهو يعرف ما يقول حيث إنّ الخطاب الوطنيّ الإجتماعيّ وكذلك ما نقدر أن ندرجه في باب الممارسة والسلوكيّة أضحى جزءًا مكينًا

من الهويّة اللبنانيّة إلاّ أنّ الأمر عندما يتعلّق بالسياسة وتطبيق الشعارات والنظريّات على المستوى العمليّ، فإنّنا – كما يقول صاحب الكتاب – هناك "المفارقة المؤلمة التي تكمن في الظروف المستجدّة دائمًا والتي تمنع من تطبيق الاتّفاقات وكأنّ التناقض، إلى جانب ثقافة الحوار الوطنيّة، هو أيضًا ثقافة لبنانيّة كما حصل مع إعلان بعبدا وغيره من الإعلانات". والواقع أنّه من ميّزات هذه الأطروحة أنّها من ناحية قريبة من واقع الحوار على الصعيد العمليّ ومن ناحية أخرى، هي مرتبطة بالمستوى العمليّ لأنّها لا تتردّد في قول الأشياء كما يجب أن تقال من دون مواربة لأنّ الحوار بين طرفين لا يلغي الحقيقة ولا بدّ أن يأخذ الطرفان الحقيقة على محمل الجدّ وأن يسعيا إلى التعرّف عليها لكي يأخذ الحوار طريقه إلى النجاح.

ثالثًا : للحوار الإسلاميّ المسيحيّ قواعده ومراجعه على الصعيد العقائديّ اللاهوتيّ والشرعيّ وقد أفاض الكتاب في الوصف والعرض والتدقيق، وهذا يُقدّر حقّ قدره، لأنّ الحوار ليس فقط مناسبة إجتماعيّة أو حلقة تلفزيونيّة بل إنّه يتجاوز ذلك إلى إثباته وتوكيده في النصّ وعلى مستوى تأويل النصّ تأويلاً محكّمًا ليأتي الحوار بالفائدة على طَرَفي الحوار أو على أطرافه. فما ذَكره الكتاب على سبيل المثال عن مقرّرات المجمع الفاتيكاني الثاني وصدور الوثيقة التي تحمل عنوان "في عالمنا المُعاصر" والتي تعرِض لموقف الكنيسة الكاثوليكيّة من الأديان عامّة ومن اليهوديّة ثمّ من الإسلام على وجه أخصّ جاء في محلّه لأنّه القاعدة التي تُبنى عليها النظرة إلى الإسلام من زاوية مسيحيّة. وربّما أخالف الشيخ سامي في فهم هذا النصّ لأرى فيه ليس مجرّد تصريح أخلاقي أو حديث ينمّ عن الاحترام للديانات الأخرى فقط بل إنّه أسّست لفكر

لاهوتيّ مسيحيّ وديني ما زال صداه يتردّد حتى أيّامنا هذه. فالكنيسة، إنطلاقًا ممّا نسمّيه لاهوت الخلق الحسن، ترى أنّ في الأديان عناصر حقّ وقداسة وهي بهذا الموجب لا ترفضها ولا تهمّشها، وهذا موقف أساسيّ يدفعها للنظر إلى تلك الأديان باحترام واعتبار. وفي المجال نفسه يستفيض صاحب الأطروحة في الحديث عن تلك الاتّجاهات في الإسلام التي تدعو إلى تكفير كلّ مختلف وكلّ آخر، وإلى التطرّف من ضمن مواقف أصوليّة تدعو إلى العنف والإرهاب لتحقيق الغاية، وبالتالي فإنّ الأطروحة لم تتردّد هنا أيضًا في الدلالة على مكامن أصول الخلل الآتية من بعض الاتّجاهات والمرجعيّات النابذة لمبدأ كلّ حوار مع المختلف وبالتالي تكفيره وتسخيفه وممارسة العنف عليه.

رابعًا : لا شكّ أنّ قلب الأطروحة أحدّده لا فقط في ذلك الفصل المتين الذي يعرض لمؤسّسات الحوار ورجالاته من مسلك التوحيد بل ذلك الفصل الأوّل من الباب الثاني الذي يعرض للرؤية الحواريّة عند الموحّدين "الدروز" على المستويات الوطنيّة والدينيّة والإجتماعيّة، فإذا بنا أمام فقرات غنيّة في نظريّات التوحيد، الجامع المشترك الذي يرى ويثبّت تلاقي الأديان في العرفان ويعرِّف بمسلك التوحيد على أنّه مسلك أخوّة وسلام بالرغم من التاريخ المتقلّب معهم وعليهم ويحدّد الانتماء للدولة الوطنيّة وللعروبة والإسلام طريقًا قويمًا لهم ومن ضمن ضرورة الاتّصال بالآخر لا الانفصال عنه. ويُفرد صاحب الكتاب صفحات غنيّة تجعل من معرفة الذات، من الوجهة السقراطيّة، سبيلاً لمعرفة الآخر واحترامه لأنّ الصدق مع الذات يقود حكمًا للصدق مع الآخر للعيش معه بوئام وأمان. وهنا يذكر الشيخ سامي مأساة الجبل لا

للبكاء على الأطلال بل للتأكّد على أنّها فاصلة في تاريخ مشترك ونقطة انطلاق للبناء معًا ضمن الثوابت الوطنيّة.

وأخيرًا وليس آخرًا، لفت نظري وقوف صاحب الأطروحة على مراسلات بين البابويّة الفاتيكانيّة ومشايخ آل جنبلاط تدعو للحفاظ على المسيحيّين كأمانة وإلى التعاون المشترك لاستتباب الأمن والسلام. وهذا معناه أنّ اللقاء الدرزيّ المسيحيّ، بما فيه من عيش وتاريخ مشترك، ليس مجرّد حادثة هامشيّة من حوادث التاريخ وبالتالي فإنّ على الطرفين الإصغاء إلى نداء البابويّة عبر الحوار الدائم لما فيه خير الوطن وحريّة الكلمة والضمير وضرورة التقدّم والنموّ على مختلف المستويات الإجتماعيّة والتربويّة والاقتصاديّة .

كتاب الشيخ سامي أبي المنى هو أيضًا لُبنة جديدة وأساسيّة تُضاف إلى أدبيّات الحوار الإسلاميّ المسيحيّ، إلى ثقافة الحوار والعيش المشترك وإلى بنية الوطن الدولة الجامعة لبنيها، فشكرًا له لما قدّمه وعرضه علينا وأضافه إلى قضيّة الحوار الإسلاميّ المسيحيّ، متمنّين عليه التقدّم الحثيث في البحث والكتابة في هذا الموضوع وغيره.